قبل أن تغرق السفينة

الشيخ
محمد حسان

دار ابن رجب

قبل أن تغرق السفينة

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م

دار ابن رجب طبع. نشر. توزيع

فارسكور : تليفاكس ٠٠٢٠٥٧٤٤١٥٥٠ جوال : ٠١٢٢٢٣٦٨٠٠٢

المنصورة : شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : ٠٠٢٠٥٠٢٣١٢٠٦٨

قبل أن تغرق السفينة

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ،ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠-٧١]

أحبتي في الله : قبل أن تغرق السفينة :

هذا هو عنوان لقائنا اليوم مع حضراتكم ، فأعيروني القلوب والأسماع جيدًا ، والله أسأل أن يجعلنا من ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُواْ الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ١٨]

أولًا : سفينة واحدة .

نعم أيها المسلمون الكرام إننا جميعًا نركب

سفينة واحدة ، يركب هذه السفينة الصالحون والطالحون ، المتقون والمذنبون ، فإن نجت السفينة نجا الجميع ، وإن غرقت وهلكت السفينة هلك الجميع ، سيهلك الصالحون والطالحون ، سيهلك المتقون والمذنبون ، سيهلك الطائعون والعاصون ، لذلك قال الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى كما في صحيح البخاري وسنن الترمذي من حديث النعمان بن بشير ﷺ قال رسول الله ﷺ: « **مَثَلُ**

القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا ، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا ، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ ، مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا))[1].

---

(1) **صحيح** : رواه البخاري رقم (٢٤٩٣) في الشركة ، هل يُقْرَعُ في القسمة والاستهام فيها ؟.

قوم ضربوا القرعة في سفينة تمشي في البحر ، فوقعت القرعة على مجموعة منهم في أعلى السفينة ، ووقعت على الفريق الآخر في أسفل السفينة ، وكان هؤلاء الذين سكنوا أسفل السفينة إذا أرادوا أن يحصلوا على حاجتهم من الماء صعدوا ، ومروا على من سكنوا السفينة بالطابق الأعلى ، فقالوا : بدلًا من أن نرتقي كل مرة إلى أعلى السفينة لنحصل على حاجتنا من الماء ، فهيا لنختصر

الطريق ، ولنخرق في أسفل السفينة خرقًا لنحصل على الماء الذي نريد ، فلو تركوهم و ما أرادوا هلكوا جميعًا فإن السفينة حتمًا بعد مرحلة من المراحل ستغرق وتهلك ، ويهلك كل ركاب السفينة ، أما إذا أخذوا على أيديهم وحالوا بينهم وبين إفساد السفينة بهذا الخرق لنجوا جميعًا .

مثلٌ نبوي بليغ لمحمد بن عبد الله ﷺ ، وهو الذي لا ينطق عن الهوى .

نحن جميعًا في سفينة المجتمع ، والناس في هـذا المجتمع ينقسمون إلى ثلاثة أصـناف « **صنف** » وحَّد الله جَلَّ وَعَلَا ، وراقب الله في حاله ، وأطاع الله في السر والعلانية .. هؤلاء هم الصالحون المصلحون .. هؤلاء هم قادة النجاة.. أسأل الله أن يجعلنا منهم بِمَنِّه وكرمه .

و « **صِنْف** » وقع في المعاصي والذنوب ، وهذا خطره عظيم على المجتمع كله و « **صِنْف** » ساكن صامت لا ينصر المصلحين ، ولا ينكر

على المفسدين المذنبين العاصين ، وهذا الصنف أيضًا صنف خبيث خطير ، لا يعيش إلا لشهواته الرخيصة ، ولا يعيش إلا لتجاراته ، وأمواله ، هذا الصنف الخبيث يهلك أيضًا مع الهالكين الفاسدين المذنبين ، وإن هلك الصالحون مع إهلاك الله للجميع سيُبعث الصالحون يوم القيامة على نيَّاتهم وعلى طاعتهم لكنهم في الدنيا سيهلكون مع الطالحين .

تدبر معي قول سيد النبيين كما في الصحيحين

من حديث زينب بنت جحش - رضي الله عنها - « دخل النبي عليها يومًا فزعًا ، وفى لفظ : قام النبي يومًا من النوم فزعًا ، وهو يقول : « **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ . فُتِحَ اليَوْمُ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ** » وحلق النبي بأصبعيه الإبهام والتي تليها ، فقالت زينب أم المؤمنين : يا رسول الله ! أَنَهْلِكُ ، وفينا الصالحون ؟ قال :

« نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ »[1] يهلك الصالحون ويبعثون يوم القيامة على نياتهم ، ويهلك الطالحون

فلا بد أن يعي الجميع أننا نركب سفينة واحدة إن هلكت السفينة هلك الجميع ، وإن نجت السفينة نجا الجميع .

فوجب على المصلحين الصالحين أن يأخذوا على أيدي السفهاء ، وأن ينكروا على العصاة

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخاري رقم (٣٣٤٦) في أحاديث الأنبياء ، ومسلم رقم (٢٨٨٠) في الفتن .

المذنبين ، وأن يبينوا لهم خطر المعاصي والذنوب لا على المذنبين فحسب بل على المجتمع بأسره لذا يقول ربنا جل وعلا : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ... ﴾

ظهر الفساد في البر ، وظهر الفساد في البحر ، بل والله لقد ظهر الفساد في الجو ، والله ما ترك بنو آدم مكانًا إلا وعكروه بأنفاس معاصيهم ، وذنوبهم حتى الطائرات في عنان السماء تطير بأمر الملك ولطفه ورحمته ، ومع

ذلك ترى فيها بني آدم يبارزون الملك بالمعاصي ، بالخمور ، أو بالدعارة ، فالفساد لم يترك البر ، ولم يترك البحر ،ولم يترك الجو ، وقال جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠]

لذا وجب على أهل الصلاح والعقلاء من أُولي الألباب أن ينكروا على أهل المعاصي والذنوب ، وأن لا ينظر المسلم إلى المعصية فيهز منكبيه ، ويمضي وكأن الأمر لا يعنيه لا

من قريب ، ولا من بعيد بحجة أنه يحفظ قول الله جَلَّ وَعَلَا : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾

[المائدة : ١٠٥]

هذا فهم سقيم ، وفهم مقلوب ، لآية من كتاب ربنا جَلَّ وَعَلَا : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ أي إن أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر ، وأشهدتم الله على أن قلوبكم تحترق

على هذا المنكر الذي أمرتم بتغييره ، ونهيتم عن الوقوع فيه ، ولكن المذنبين العاصين لم يستجيبوا . حينئذٍ فلن يضركم ضلال الضلال ، ولن يضركم انحراف المنحرفين ، ولن يضركم فساد المفسدين ، ولن تحرقكم معصية العصاة المتجرئين على رب العالمين .

لذا وقف صديق الأمة أبو بكر الصديق ﷺ على منبر النبي ﷺ يومًا ليبين للناس الفهم الصحيح لهذه الآية ، فحمد الله وأثنى عليه

ثم قال : أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ . وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول : ((إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ لَا يُغَيِّرُونَهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ))[1].

والحديث رواه أحمد وأبو داود والترمذي

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٠٥٩) في أبواب تفسير القرآن من سورة المائدة ، وأبو داود رقم (٤٣٣٨) في الملاحم ، باب الأمر والنهي .

وصححه الألباني وفي لفظ ابن ماجة بسند حسن أنه ﷺ قال : « **مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا فَلَا يُسْتَجَابَ لَكُمْ** »[1].

فالمعاصي خطرها عظيم ليس على العصاة المذنبين فحسب بل على المجتمع بأثره ، وهذا هو عنصرنا الثاني بإيجاز لنعرج على بقية العناصر إن شاء الله .

---

(١) رواه ابن ماجة رقم (٤٠٠٤) في الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ثانيا : خطر الذنوب والمعاصي .

إن المعاصي والذنوب سبب لكل شقاءٍ ، وبلاءٍ ، وضنكٍ في الدنيا ، وسبب الهلاك في الآخرة .

ما الذي طرد إبليس من رحمة الله ؟!

ما الذي أهلك فرعون وملأه ؟!

ما الذي أهلك قوم عاد ؟!

ما الذي أهلك قوم ثمود ؟!

ما الذي أهلك قارون ؟!

ما الذي أهلك الجبابرة والطواغيت في كل زمان ومكان ؟!

الجواب في كلمة واحدة : إنها المعصية .

على اختلاف مراتبها ، ودرجاتها ابتداءً من الشرك بالله ، فإن الشرك أعظم وأكبر الذنوب ، وإذا مات الإنسان عليه يخلد في النار قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ﴾ [النساء : ٤٨]

وانتهاءً بأقل معصية ترتكب في حق خالق

السماء والأرض جَلَّ وَعَلا ، فالمعصية سبب للشقاء والهلاك والضنك .

قال تعالى : ﴿ ... فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۞ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ۞ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ

أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ [طه : ١٢٣-١٢٧]

من أعرض عن طاعة الله ، وعن ذكر الله سيعيش عيشة الضنك ، عيشة الشقاء وإن رأيته للوهلة الأولى غارقًا في المتاع والرخاء ، فهو يعيش ضنكًا لا يشعر به إلا هو قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ **ضنك** في الأولاد .. **ضنك** في الزوجة .. **ضنك** في القلب .. **ضنك** في العمل .. **ضنك** في كل شيء .

الذنوب والمعاصي سبب للذل والهوان ، فإن العز كل العز في طاعة الرحمن ، والذل كل الذل في معصية الرحمن .

قال الحسن : يأبى الله إِلَّا أن يذل من عصاه وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البرازين ، فإن ذل المعصية في قلوبهم ، وأقول : ويأبى الله إِلَّا أن يعز من أطاعه واتقاه .

وهل ما تحياه الأمة الآن من ذل وهوان إِلَّا لأنها وقعت في معصية الملك الرحمن ، وانحرفت عن منهج سيد ولد عدنان ؟!!

اسمع لنبيك ﷺ يقول في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وأبو داود من حديث عبد الله ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ ، وَتَرَكْتُمْ الجِهَادَ سَلّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلا لَا يَنْزِعُهُ عَنْكُمْ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ** »[1].

(١) رواه أبو داود رقم (٣٤٦٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١) بمجموع طرقه .

وقد تبايعنا بالعينة - وهو نوع من أنواع المعاملات الربوية - ، وتبعنا الدنيا بكل متاعها ، ورضينا بالزرع ، وتركنا الجهاد فأصبحت الأمة في ذل بعد عز ، وهزيمة بعد نصر ، وضعف بعد قوة .. أصبحت الأمة ذليلة لأذل أمم الأرض لمن كتب الله عليهم الذل والذلة ، وهذه سنة ربانية .

وتدبر معي كلام الحبيب المحبوب ﷺ كما في الحديث الصحيح الذي رواه الحاكم وابن

ماجة من حديث ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع أن النبي ﷺ قال : « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ باللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ : لَمْ تَظْهَرِ الفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا ، وَلَمْ يَنْقُصُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ ، وَشِدَّةِ المَؤُنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا القَطْرَ مِنَ

السَّمَاءِ وَلَوْلَا البَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ ، إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ »[1].

يقول الحبيب المصطفى ﷺ « لَمْ تَظْهَرِ الفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا

(١) رواه ابن ماجة رقم (٤٠١٩) في الفتن ، وحسن إسناده الشيخ الألباني في الصحيحة رقم (١٠٦) .

فِيهِمُ الأَوْجَاعُ وَالأَسْقَامُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي **أَسْلَافِهِمْ** »[1]

نعم إن الفاحشة بدت للعنان وأُعلن بها ولذا ترى الآن ما يسمى بمرض « **الإيدز** » المدمر للجهاز المناعي للإنسان ، وغير الإيدز أمراض كثيرة .. كثيرة وعجيبة ما سمعنا بها وما رآها أسلافنا الذين مضوا .. وهـذا ظاهر

(١) رواه ابن ماجة (٤٠١٩) في الفتن ، باب العقوبات ، وهو في صحيح الجامع (٧٩٧٨) .

واضح للقاصي والداني .

ذلك بسبب انتشار الفاحشة ، وكثرة الزنا ، لقد حولت أندية الليل العابثة الليل إلى نهار ، وكثُرت بيوت الدعارة والمروجين لها ، بل وقُنِّن للدعارة في كثير من بلاد المسلمين .

وظهر الطبق الهوائي الذي يسمى « **بالدش** » وهو أكبر مروج للدعارة والزنا والعياذ بالله ، ولقد انتشر الآن في القرى والنجوع من بلاد المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله .

يقول المصطفى ﷺ « **وَلَمْ يَنْقُصُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ ، وَشِدَّةِ المَؤُنَةِ ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ** » .

أشهد أن محمدًا ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، لقد انتشر في هذا الزمان نقص المكيال ، وتطفيف الميزان وكانت النتيجة الحتمية هذه الشدة التي تحياها الأمة ويا لها من شدة !! يعيش فيها كثير من الناس فأنت ترى الأمة وما تحياه الآن من الفقر

والضنك .. فكم من عرايا ؟! وكم من جوعى ؟! وكم من مرضى ؟! وكل هؤلاء لا يجدون ما يسد جوعهم ، ولا يستر جسدهم ، ولا يطبب مرضهم . يقول المصطفى ﷺ : « **وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا القِطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا البَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا** » ورد في خبر من الإسرائيليات ، ونحن نأخذ به ما لم يعارض صريح القرآن ، أو صحيح السنة ، أن بني إسرائيل لم ينزل الله عليهم المطر لفترة

طويلة حتى جف الضرع وهلك الزرع ، وتعرض الناس للبلاء فقالوا لنبي الله سليمان : يا نبي الله ! اخرج واسأل الله أن ينزل علينا المطر ، فخرج سليمان مع بنى إسرائيل ، ومر في طريقه على وادي النمل ، وأنتم تعلمون أن الله فك لسليمان رموز لغة النمل فالتفت سليمان فرأى نملة تناجي ربها جَلَّ وَعَلَا ، وتقول كلامًا عجيبًا : « اللهم إنك تعلم أنه لا ينزل البلاء إِلَّا بذنب ، ولا يرفع البلاء إِلَّا

بتوبة ، ونحن خلق من خلقك فلا تهلكنا بذنوب بني آدم)).

((**وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ الله ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ**)).

صدقت يا رسول الله فانظر الآن إلى أحوال المسلمين في بقاع الأرض ستجد أنهم سُلبوا في كل مكان ضاعت الأندلس وضاعت فلسطين وضاعت الجولان ،

وضاعت كشمير ، ليس ذلك فقط فأنتم ترون ما يحدث الآن في البلقان !!

يقول المصطفى ﷺ « **وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ ، إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ** » فها أنت ترى البأس شديدًا بين أفراد الأمة .

أحبتي في الله :

انظروا إلى شؤم المعاصي والذنوب ، فإن المعـاصي تزيل النعم ، وتحل النقم ، فما حلت

نقمة ، وما زالت نعمة إلا بذنب .

قال جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠]

وقال جَلَّ وَعَلَا : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنفال : ٥٣]

وقال جَلَّ وَعَلَا : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[الرعد : ١١]

لا يُبدل الله النعم بالبلاء ، ولا يبدل النعم بالنقم إلا إذا بدل العباد ابتداء الشكر بالكفر ، والنعم بالمعاصي .

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعِهَـا
فَإِنَّ الذُّنُوبَ تُزِيلُ النِّعَـمِ
وَصُنْهَا بِطَاعَةِ رَبِّ العِبَادِ
فَإِنَّ الإِلَــهَ سَـرِيعُ النِّقَـمِ

قد يقول قائل : إننا نرى كثيرًا من أهل الكفر والإلحاد وكثيرًا ممن يتاجرون في الحرام ،

ويأكلون الحرام ، ويتاجرون ويتعاملون بالربا ، غارقين في النعم ، فما جوابك على ذلك ؟!!

والجواب من الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى رواه أحمد والبيهقي في الشعب ، وصححه الألباني في السلسلة من حديث عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال : « **إِذَا رَأَيْتَ اللهَ تَعَالَى يُعْطِي العَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ** » ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا

مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥] (١).

فليس زيادة النعم معناه الرضا ، وليس نقص النعم معناه السخط ، فإذا رأيتم عبدًا من العباد على المعصية وأعطاه الله من فضله ،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٤٥) رقم (١٧٢٤٤) وهو في صحيح الجامع (٥٦١) .

فكن على يقين جازم أن هذا استدراج له من الله جَلَّ وَعَلَا ، فالذنوب والمعاصي تزيل النعم وتحل النقم .

اسمع لحبيبك المصطفى ﷺ وعُضّ على هذا الحديث بنواجذك ، الحديث رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع أن النبي ﷺ قال : « **إِنَّ رُوحَ القُدُسِ - أَي جِبْرِيلَ** عليه السلام **- نَفَسَ فِي رَوْعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى**

تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا ، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا ، فَاتَّقُوا اللهَ ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ ،وَلَا يَحْمِلُنَّ أَحَدُكُمْ اسْتِبْطَاءَ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيةِ الله ،فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ))[1].

اعلم بأن رزقك مقدر ، ووالله لو عشت ألف سنة لن تستطيع قوة على وجه الأرض أن تحول بينك وبين ما قدره الله لك من

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠٨٥) .

الرزق ، ولن تستطيع قوة على وجه الأرض أن ترزقك برزق لم يقدره لك الرزاق .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود : ٦]

فإن الرزق من عند الله ، ولا ينال ما عند الله إلا بطاعته .

قال جَلَّ في علاه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾

قال جَلَّ في علاه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٤]

قال جَلَّ في علاه : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣]

فلا تطلب ما عند الله بمعصية الله ، فإن الرزق من عند الله ، وما عند الله لا ينال إلا بالطاعة .

ثالثا : الذنوب والمعاصي سبب لسوء الخاتمة.

من عاش على شيءٍ مات عليه ، يأتي العاصي الذي عاش للشهوات والملذات والذنوب فيحاول جاهدًا على فراش الموت أن يحرك شفتيه بكلمة التوحيد فيغلب عليه الذنب ، ويطبع الذنب على قلبه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية طيب الله ثراه .

يغلب عليه الذنب وتطبع المعصية على قلبه ، ولا ينطق اللسان إلا بما طبع في القلب ،

فإذا ما حاول أن ينطق بكلمة التوحيد يغلب على اللسان ما طبع في القلب طيلة الحياة الدنيا ، فيشعر بثقل شديد كأن الشفتين جبلًا لا يريد أن يتزحزح ، بل وربما ينطق اللسان بما سكن في القلب من حب الشهوات ، والملذات كما صرح بذلك أهل العلم كابن القيم والطبري وابن الجوزي وغيرهم .

ذكر ابن القيم أن رجلًا نام على فراش الموت وكان تاجرًا لا هم له إلا التجارة ،

تعلق قلبه بحب المال ، ولم يؤد حق الكبير المتعال قيل له : قل : « **لا إله إلا الله** » فما كان يرد عليهم إلا بقوله : ألفين .. ثلاثة آلاف .. أربعة آلاف ، وظل يكرر ذلك حتى خُتِمَ له بهذه الكلمات .

قال الحافظ ابن كثير : لقد أجرى الكريم عادته بكرمه أن من عاش على شيء مات عليه ، ومن مات على شيء بعث عليه .

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال : « يُبْعَثُ

كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ »[1].

أيها الأخـوة الكرام : إن من أخطـر أثار الذنوب والمعاصي أنها سبب لسوء الخاتمة ، أيها اللاهون ، أيها العصاة ، أيها المذنبون هيا من الآن فإن أقرب غائب ننتظره هو الموت ، فالموت لا يترك صغيرًا ولا كبيرًا ، ولا صحيحًا ولا مريضًا ، ولا رجلًا ولا امرأة .

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٨٧٨) في الجنة وصفة نعيمها ، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت .

أَبَتْ نَفْسِي تَتُوبُ فَمَا احْتِيَالِي
إِذَا بَرَزَ العِبَادُ لِذِي الجَلَالِ
وَقَامُوا مِنْ قُبُورِهِمْ سُكَارَى
بِأَوْزَارٍ كَأَمْثَالِ الجِبَالِ
وَقَدْ نُصِبَ الصِّرَاطُ لِكَي يَجُوزُوا
فَمِنْهُمْ مَنْ يُكَبُّ عَلَى الشِّمَالِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَسِيرُ لِدَارِ عَدْنٍ
تَلَقَّاهُ العَرَائِسُ بِالْغَوَالِي
يَقُولُ لَهُ المُهَيْمِنُ يَا وَلِيِّي
غَفَرْتُ لَكَ الذُّنُوبَ فَلَا تُبَالِي

فعد إلى الله .. وتب إلى الله .. واعلم أنك إذا عشت على الطاعة مت على الطاعة ، اترك صحبة السوء أيها الشاب ، وهيا إلى بيت الله .. إلى صحبة الخير والإيمان .. إلى صحبة الطهر والعفة و البراءة ، هيا عد إلى الله ، وأقبل إلى الله جَلَّ وَعَلَا ، فإن من أخطر آثار الذنوب والمعاصي أن تغلب المعصية على قلبك وأنت على فراش الموت فيختم لك بالمعصية والسوء والعياذ بالله .

رابعًا : قادة النجاة .

قادة النجاة لهذه السفينة في المجتمع بأسره ، هم العلماء ، هم الدعاة ، هم الصالحون المصلحون الذين يطيعون الله جَلَّ وَعَلَا ويتحركون بين الناس ليذكروهم بالله ، ويأمروهم بالمعروف ، وينهوهم عن المنكر فلا تحرم نفسك من هذا الخير .

ما الذي يحول بينك وبين دعوة رجل إلى الصـلاة بكلمة طيبة رقيقة وأنت في طريقـك

إلى بيت الله ؟!

هذا هو سبيل النجاة ، وهؤلاء هم قادة النجاة .

تعلم أن امرأتك أو ابنتك تخرج كاسية عارية متبرجة ، ولا يحترق قلبك، ولا تجري الدماء في عروقك ، فأنت على خطر عظيم .

تنظر إلى إخوانك من المسلمين على التقصير والانحراف ، والمعاصي والذنوب ، وتضحك بملء فمك ، وتأكل ملء بطنك

وتنام ملء عينك ، وكأن الأمر لا يعنيك ، أنت على خطر عظيم .

ففي الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ »[1].

---

(١) **صحيح** : رواه مسلم رقم (٤٩) في الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان .

قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠]

وقال جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

[آل عمران : ١٠٤]

فمر بالمعروف بمعروف وانْهَ عن المنكر بغير منكر بالكلمة الطيبة ، إن كنت قادرًا على

التغيير بيدك دون أن يترتب على ذلك أضرار ، أو ما هو أكبر من المنكر ذاته ، فغير بيدك وإن عجزت أن تغير بيدك فغير بلسانك بكلمة رقيقة رقراقه ، بكلمة طيبة ، فإن عجزت فبقلبك ، وتغيير المنكر بالقلب لا يتم إلا بشرطين :

الأول : أن يرى الله من قلبك البغض لهذا المنكر .

الثاني : أن تترك المكان الذي يرتكب فيه المنكر ، وأنت عاجز عن تغييره ، أما أن تظل مستأنسًا متلذذًا بالمنكر وأهله فأنت على معصية ، بل وعلى خطر عظيم .

يقول النبي ﷺ : « **إِنَّ مِنَ النَّاسِ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ** »[1].

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم (٣٠) وقال الشيخ شاكر إسناده صحيح ، وصححه الألباني .

وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ ، أَوْ لَيُوشَكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ** »[1].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب العظيم لهذا الدين ، ولو تركناه

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢١٦٩) في الفتن ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٧٠) .

لفشت الضلالة ، وعمت الجهالة ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولن يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ، فَمُر بالمعروف ، لا أقول بالعصا ولكن بالحكمة والرقة .. بالكلمة الطيبة .. بالموعظة الحسنة .

قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

[النحل : ١٢٥]

أيها الأحبة :

خامسًا : متى نتوب .

أيها اللاهي أيها الساهي :

دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ فَاتَ فِي زَمَنِ الصِّبَا
وَاذْكُرْ ذُنُوبَكَ وَابْكِهَا يَا مُذْنِبُ
لَمْ يَنْسَهُ المَلَكَانِ حِينَ نَسِيتَهُ
بَلْ أَثْبَتَاهُ وَأَنْتَ لَاهٍ تَلْعَبُ
وَالرُّوحُ مِنْكَ وَدِيعَةٌ أُودِعْتَهَا
سَتَرُدُّهَا بِالرَّغْمِ مِنْكَ وَتُسْلَبُ

وَغُرورُ دُنْيَـاكَ الَّتِي تَسْعَى لَهَـا
دَارٌ حَقِيقَتُهَـا مَتَـاعٌ يَذْهَـبُ
اللَّيْلُ فَاعْلَـمْ وَالنَّهَـارُ كِلَاهُمَـا
أَنْفَاسُـنَا فِيهِمَـا تُعَـدُّ وَتُحْسَبُ

فمهما كانت ذنوبك ، ومهما كانت معاصيك لا نجاة لك إلا بالتوبة والأوبة إلى الله ، فهيا اسلك سبيل النجاة ، وتب إلى الله ، وعد إلى الله ، واعلم بأن الله سيفرح بتوبتك مهما كانت ذنوبك إن تبت إليه وعدت .

قال جَلَّ وَعَلَا : ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

[الزمر : ٥٣]

نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يسترنا فوق الأرض وتحت الأرض ويوم العرض إنه ولي ذلك والقادر عليه .